يا حسرتا على ما فرّطت

لقد ثبت في العلوم العالية، أنّ مراتب الإستعداد غير متناهية.. مهمّا تصوّرت أنت، وتصوّرت جميعُ العقول شدّة العذاب.. فإنّ ما هو أشدّ من ذلك ممكن.
إذا كنتَ لم تطّلع على برهان الحكماء، أو كنتَ لا تصدّق كشف أهل الرّياضة، فأنت بحمد الله مؤمنٌ تعتبر الأنبياء صلوات الله عليهم صادقين. أنت تعتبر الأخبار الواردة في كتبنا المعتبرة التي يقبلها علماء الإمامية صحيحة.
أنت رأيت مناجاة مولى المتّقين أمير المؤمنين سلام الله عليه، ورأيت مناجاة سيد السّاجدين ﷺ في دعاء أبي حمزة.
تأمّل قليلاً في مضمونها، فكّر بعض الشيء في فقراتها. ليس من اللازم أن تقرأ دعاءً طويلاً دفعة واحدة على عجل، وبسرعة، ولا تفكر في معانيه. أنا وأنت ليس لنا حال المولى السجّاد ﷺ لنقرأ ذلك الدعاء الطّويل بتوجّه. إقرأ في كلّ ليلة ربعَه، أو ثُلثَه بتوجّه، وفكّر في فقراته. لعلّك تُصبح صاحبَ حال.
وبقطع النّظر عن كلّ ما تقدّم، فكّر قليلاً في القرآن. أنظر أيّ عذابٍ توَعَّد به أهلَ جهنّم. يطلبون من «مالك» أن يقضي عليهم. هيهات، لا مجال للموت.

أنظر إلى قوله تعالى: ﴿ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ... ﴾ الزمر: 56، ترَ أيّ حسرةٍ هي هذه التي يعبّر عنها الله مع كلّ عَظَمته بهذا التّعبير. تدبّر في الآية الشّريفة المباركة... ولا تمرّ بها بدون تأمّل وتدبّر.
﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ الحج: 2
فكّر جيداً يا عزيزي. ليس القرآن ـ نعوذ بالله ـ كتاب قصّة. لا يمزحُ معك.
أنظر ماذا يقول. أيّ عذاب هذا الذي يُنسينا عزيزَنا؟ يُسقطُ الحامل؟
تُرى.. أيّ عذاب هذا الذّي يصفُه الله تعالى ـ بالرّغم من كلّ عظمته ـ بالشدّة. وفي مكان آخر بالعَظَمة. الشيء الذي يصفُه الله تعالى ـ الذي لا حدّ ولا حصر لعَظمته ولا حدّ لعزّته وسلطانه ـ بالشدّة والعَظمة، ما هي حقيقته يا تُرى؟
يعلم الله. عقلي وعقلك وفكرُ جميع البشر يعجز عن تصوّره.
إذا رجعتَ إلى أخبار أهل بيت العصمة الطّاهرة، وآثارهم، وتأمّلتَ فيها، تفهم أنّ قضية عذاب ذلك العالم غير العذابات التي تصوّرتَ.
القياسُ بعذابِ هذا العالم قياسٌ باطلٌ مغلوط.
أنقل لك حديثاً شريفاً عن الشّيخ الجليل القدر صدوق الطّائفة، لتعلم ما هي حقيقة الأمر، وخطورة المصيبة. مع أنّ هذا الحديث هو حول جهنّم الأعمال التي هي أبردُ من جميع أنواع جهنّم. ويجب أن تعلم أولاً أنّ الشيخ الصّدوق الذي يروي هذا الحديث هو من يتصاغر أمامه جميعُ العلماء الأعلام، ويعترفون بجلالة قدره. ذلك المعظّم وُلد بدعاء الإمام ﷺ وعجّل الله تعالى فرجه الشريف والكاتب [يقصد الإمام نفسه] ينقل الحديث بطرق عديدة عن كبار علماء الإماميّة عليهم رضوان الله، متّصلة بالشيخ الصّدوق، والمشايخ ما بيننا وبين الصّدوق كلّهم من ثُقاة الأصحاب. إذا كنتَ من أهل الإيمان فيجب أن تعتقدَ بهذا الحديث.
روى الصّدوق بأسناده عن مولانا الصادق ﷺ، قال:
«بينا رسول الله صلّى الله عليه وآله ذات يوم قاعد، إذ أتاه جبرائيل وهو كئيب، حزين، متغيّر اللون، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: يا جبرائيل، ما لي أراك كئيباً حزينا؟
فقال: يا محمد، وكيف لا أكون كذلك وإنّما وُضعت منافخ جهنّم اليوم، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: وما منافخ جهنم يا جبرائيل؟
فقال: إنّ الله تعالى أمر بالنار فأُوقد عليها ألف عام حتى احمرّت، ثمّ أمر بها فأُوقد عليها ألف عام حتى ابيضّت، ثمّ أمر بها فأُوقد عليها ألف عام حتى اسودّت، وهي سوداء مظلمة، فلو أنّ حلقةً من السّلسلة التي طولها سبعون ذراعاً، وُضعت على الدّنيا لذابت من حرّها، ولو أنّ قطرةً من الزّقوم والضّريع قُطرت في شراب أهل الدنيا، لمات أهل الدنيا من نَتَنها.
قال: فبكى رسول الله صلّى الله عليه وآله، وبكى جبرائيل، فبعث الله إليهما ملَكاً، فقال إنّ ربّكما يُقرئكما السلام ويقول: إنّي أمنتكما من أن تُذنبا ذنباً أعذّبكما عليه».
أيّها العزيز، أمثال هذا الحديث الشريف كثيرة جداً، ووجود جهنّم وعذابها الأليم من ضروريّات جميع الأديان وواضحات البرهان. وقد رأى أصحاب المكاشفة وأرباب القلوب في هذا العالم نموذجاً منه. تصوّر جيداً، وتدبّر في مضمون هذا الحديث الذي يقصم الظّهر.
ماذا جرى؟!! فإذا نحن إلى هذا الحدّ سادرون في نوم الغفلة والجهالة؟!!
هل نزل علينا ملك كما نزل على رسول الله وجبرائيل فأمننا من العذاب؟!
ماذا جرى لنا، فلا نستحي أبداً؟ نهتُك الحرمات والنّواميس الإلهيّة في محضر الربوبيّة إلى هذا الحدّ. الويل لنا، ولغفلتنا، ولشدّة سكرات موتنا. ألا فالويل لنا في البرزخ وشدائده، وفي القيامة وظلماتها، ألا فالويل لحالنا في جهنّم وعذابها وعقابها.

الإمام الخميني، الأربعون حديثاً